وليعلم المؤمنين(*)

في حديث موصول مع وقائع معركة أحد. . وما حملته سحابة يومها من معاني العطاء. . : تقفنا الآيات القرآنية على مواجهة فريدة للمعركة ليست من أرض السرد التاريخي بسبب. . لكن الحديث عن الوقائع، طريقُها إلى البناء في إحاطة دقيقة وعميقة بكل ما ازدانت به تلك الساعات الفاصلة في تاريخ دعوة الإسلام. . ذلك لأننا لو أخذنا النسبة العددية أولاً، ثم ما كان من النتائج بالمقياس العسكري ثانياً: لوجدنا الأمر على غير المدى الذي قد نتصوره من خلال المبادئ. . لكنه بناء القاعدة المؤمنة. . ورسم المعالم التي تتجاوز حدود أرض أحد وزمان أحد. . والأشخاص الذين تحركوا على أرض المعركة في أحد.

لقد كانت مواجهة الكتاب الحكيم للمعركة، بكل ما غنيت به من عطاء مواجهة: نقلتها ـ مع الإحاطة بها ـ من لقاء قتالي مع المشركين، إلى صفحة كريمة بالغة الأهمية، في ميدان الرسالة وإعداد أبنائها إعداداً يتجاوز بهم حدود الخطأ والصواب، إلى أن يكون كل من الخطأ والصواب مفتاحاً لنقلة عملاقة لا يعوقها فرح غامر أو يأس مقيت.

كان ذلك وكان معه سلامة التلقي، وحسن الأسوة، والحب الصادق للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، حتى بات يوم السبت في الخامس عشر من

(*) مجلة حضارة الإسلام: العددان التاسع والعاشر، السنة السادسة عشرة، ذو القعدة وذو الحجة ١٣٩٥هـ، كانون الأول والثاني ١٩٧٥-١٩٧٦م.

شوال للسنة الثالثة للهجرة . . معبراً إلى ميدان فسيح تتحرى فيه اليد الحانية الأمينة كل عوامل القوة في مكامن العقيدة وسلامة التصور . . إلى ما يلزم من وضوح الرؤية والحركة الملتزمة هنا وهناك، بدءاً من داخل النفس وحتى أقصى ما يكون أو يمكن أن يكون من الممارسة والسلوك . . الأمر الذي يمكِّن للتمييز الواضح بين المؤمن في كل سماته الخيرة وضيائه، وبين المنافق في كل ما يرين على قلبه من ظلمات تعكس ما يكون من فلتات اللسان والانحياز عن مسالك الخير . . كما يقف أبناءَ الدعوة على اتساق النتائج مع سنن الله الكونية في هذا الوجود، وربط المسببات بالأسباب ربطاً لا بد أن يزينه صدق توكل المؤمن على الله القاهر فوق عباده . . واستدامة التعلق بأهداب الرسالة .

وعلى خط زمني متصل بالعام الثالث للهجرة . . تبدو الضرورة ملحة لأن يكون ـ مع الخط الزمني ـ خط من نسب العقيدة والعمل والعبرة!! فالآيات التي تنزلت على أحداث «أحد» هي من حيث أسباب النزول : خاصة بتلك المعركة بما كان فيها من وقائع وما سبقها من مقدمات وما أعقبت من أمور . . لكنها من حيث الدلالة ومنهجية البناء : عامة لأمة القرآن في كل زمان ومكان . . على أرض الصراع بين الحق والباطل . . والمقومات التي لا بد من توافرها لحملة الرسالة . . تلك المقومات التي يأخذ التمحيص دور الأولية في وجودها وصقلها . . والتمحيص أمر لابد منه كيما يتحدد الفيصل بين الإيمان والنفاق .

لقد رجع رأس المنافقين ابن أبي بن سلول قبل الوصول إلى أحد بحجة أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عدل عن رأيه إلى رأي الشباب . . وكان رجوعه تعلة النفاق في واقع الأمر . . ولكن كان في انحيازه عن طريق المؤمنين خير كثير . . إذ بدا هذا الرجل على حقيقته ليُحذَر في زمن مبكر على رأس أعوام ثلاثة للهجرة، وصدق في ذلك قوله الله تبارك وتعالى: ﴿ **مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ** ﴾ . والتمحيص هو الذي يكشف عن المعادن ويظهر الصادق من المدعي ﴿ **وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ** ﴾ .

خذ هذه واطرحها على طريق الريادة اليوم . . لترى أي أفضل من الله . . وأية رعاية من لدنه سبحانه تطوق أعناق العاملين عندما تقع أسباب التمحيص ويصدق عليهم في رحلتهم الطويلة الشاقة قوله: ﴿ **لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ** ﴾ .

ثم أرأيت إلى ذلك الذي ينبغي أن يخالط العقيدة ويشاطرها ميدان النفس والشعور!! ذلكم هو الأخذ بالأسباب مع صدق التوكل على الله عز وجل . . هذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يظاهر بدرعين اثنين، وينظم صفوف المقاتلين أحكم تنظيم . . ويضع كلاً مكانه حسب كفاءته . .

وحين تقع الكارثة يناله في نفسه وفي أقرب الناس منه ما لم ينل واحداً من المقاتلين ـ عليهم الرحمة والرضوان ـ . .

وما كان أعظمه موقفاً موقف شهداء الحب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذود الأعداء عنه، أولئك الذين قضوا نحبهم تحت الراية . . يبتسمون للموت ويهزؤون بالمخاطر . . وهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ثابت لا يريم . . تتزحزح الجبال الرواسي ولا يتزحزح . . وكان لثباته أثره العميق في نفوس أصحابه . . إذ جمعهم بعد شتات . . وطمأنهم بعد لهفة واضطراب . . كما كان له أثره في نفوس المشركين، لما أنه كان سلاحاً نفذ إلى أعماقهم وأقنع أكثرهم، بأن رجل العقيدة وحامل لوائها وباني تلك القاعدة الصلبة من الأبطال الذين يحبونه أكثر مما يحبون أنفسهم: طود شامخ . . ليس سهلاً مناله أو تخطيه . . فدون ذلك صدور هؤلاء الأبطال وتفانيهم في طلب الاستشهاد وافتدائه ـ عليه الصلاة والسلام ـ . . ولقد استطاعت هذه الظاهرة أن تقتحم على أولئك المعاندين عقولهم وقلوبهم وتزيل الغشاوة عن أعين ما كانت لتبصر النور لولا ذلك الخير القويُّ النفاذ.

ترى . . أوليس من بعض الوفاء أن نذكر تلك البطولات الفذة في تاريخ الإنسانية، بدءاً من مرحلة الهجوم العارم المظفر الذي كسب الجولة أول النهار . . وانتهاء بمرحلة الاستماتة بين يدي الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حماية بالصدور المشرقة بالإيمان أن يصيب الأعداء منه مقتلاً، والتفافاً حول الراية العملاقة من جديد.

إن هذه البطولات . . وهي معالم على الخط الذي يصلنا بمعاني «أحد» من حيث صلاحية هذا الإنسان لحمل العبء حين تصنعه الرسالة على عين الله . . جديرة بوقفة متأنية عميقة تحمل النفوس الوانية اليوم . . والقلوب التي تكاد أن تذوب تحت مطارق الفتنة وظلمات اليأس . . إلى حيث تدرك بواعث تلك الفرائد في حياة الرجال . . والمقومات الحقيقية التي نقلت أولئك الناس من حمأة الجاهلية الغائرة في الضياع . . إلى ذلك الميدان المشرق الفسيح حيث البذل والعطاء . . وقيادة الأمم والشعوب .

والذي يشدك إلى الحقيقة شداً . . هو أن القرآن الكريم ـ على ما كان من تلك الوقائع التي يعز نظيرها في التاريخ ـ : لم يدع أن يبين أجلى بيان ، ويذكر أوضح تذكير ، ويكشف عن المخبوء هنا وهناك . . لكن بالحكمة التي يعلمها الرحيم الرحمن سبحانه . . لما أن المعركة على الأرض تبدو سهلة إذا ما قورنت بالمعركة الكبرى مع النفس ، لالتزام المنهج الرباني كما أراد الله . . من أجل أن تكون الضوابط والمقاييس صورة تنعكس عليها ظلال ذلك المنهج بتوازنه وتكامله وشموله . .

فمعركة أحد بما حصل من خلال التحضير لها من تنوع الرأي عند المشورة ، وما أصاب الجيش بصنيع عبدالله ابن أبي بن سلول . . ثم ما كان من الجولة الظافرة ، والعطاء السخي بذلاً واستشهاداً ، وما رسمه الدم الزكي من سيد الشهداء حمزة وإخوانه ـ عليهم الرضوان ـ . . ثم ما قلب ميزان القوة في لحظة من لحظات الضعف البشري التي أغرت الرماة بالمخالفة متأولين أمر

الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه يقف عند حدود النصر . . حتى حصل ما حصل من اضطراب الصف . . وإفراد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا من أولئك البررة الذين أكرم الله أكثرهم بالشهادة . . ومن بعد ما كان من قاصمة الظهر في شائعة مقتله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وما تبع ذلك من صحوة إيمانية تشكفت ـ كما أشرنا من قريب ـ عن طاقات هائلة لم تعفّ عليها غفوة عابرة . . حتى أثمرت وفجرت في أعقاب المعركة ما فجرت . . ما ترك قريشاً من الغنيمة بالإياب . . وهي لا تكاد تصدق أن ما حصل قد كان . . فالله أعلى وأجل . . وليس القتلى سواء . . إن قتلانا في الجنة شهداء . . وقتلاهم في النار جيف .

كل أولئك، كان من التوجيهات القرآنية بحسبان دونما بخس أو شطط . . ذلك لأن الأمر ـ كما أسلفنا ـ والله أعلم بمراده ـ أمر إعداد هذه الأمة من خلال الوقائع إعداداً يغني المبادئ والقيم برصيد ضخم من التجربة والممارسة . . وعظيم جداً أن ينزل في رسم المعالم ورصد كل خطوة قرآن يتلى على مر الأجيال والعصور . . فالله سميع عليم شاهد منذ اللحظة الأولى، حيث كانت الشورى ثم العزم على الخروج ﴿**وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ . وحين ذر قرن الخيانة من سادن النفاق الذي قال مع من نكصوا على أعقابهم معه : ﴿**لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ**﴾ أدركت عناية الله بني حارثة وبني سلمة، فكان من تينك القبيلتين الثبات بعد أن كادت القدم تزل ﴿**إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ**

﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. أرأيت إلى علم الله بالهم ﴿إِذْ هَمَّت﴾ وما أكرم ما كان من التذكر بعد ذلك الهم، وما كان من الفرح بقوله جلت كلمته: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ فرح المؤمن بفضل مولاه المتفضل سبحانه، يقول عمر ـ رضي الله عنه ـ: «سمعت جابر بن عبدالله يقول: فينا نزلت ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا...﴾ قال: نحن الطائفتين: بني حارثة وبني سلمة، وما نحب، أو «ما يسرني» أنها لم تنزل لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾».

ألا وإنه ليس للمؤمنين سند وملجأ إلا الله عز وجل، فلا توكل إلا عليه، ولا معونة إلا من لدنه جل وعلا ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

ولم يغفل القرآن أن يعاتب أولئك الذين ضعفوا عن الثبات حيث أمرهم الرسول أن يثبتوا، وأصر قائدهم فلم يمتثلوا!! فسنة الله ماضية في أنه لابد من الأخذ بالأسباب على الوجه المستطاع، دونما تهاون أو تفريط؛ فالانتصار الذي كان ببدر لا يعطي قاعدة تتجاوز الأخذ بالأسباب.. كما أنه لا بد من حسن الامتثال للقيادة الراشدة المؤمنة.. مع صدق التوكل على الله الذي لا نصر إلا من عنده.. وحين يفعل المؤمنون ذلك، فالله معهم بتأييده ونصره، كالذي حصل في «بدر». أما إذا خالفوا سنة الله في ذلكم: كانت العاقبة على العكس، وذلك ماحصل في الجولة الثانية في «أحد».

لقد كانت الآيات وراء كل حركة من داخل النفس أو من خارجها.. ذلك قول الله تعالى ذي الفضل على عباده المؤمنين: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا

﴿تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ . . لكنه العقاب الذي تلمس فيه ندى الرحمة والفضل، فأنت ترى أن حكمة الحكيم سبحانه اقتضت أن يكون العتاب في شأن أخذ الأسرى في أعقاب «بدر» بحرف أشد منه هنا حيث قال الله تعالى هناك: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ . بينما رأينا في شأن أحد - وحسب المصاب ما أصابه - ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

وعلى ما أصاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الغم حين لاذ المقاتلون بالفرار مضطربين نتيجة التفاف المشركين على الجيش المسلم وتجمعهم مجدداً، وهو - عليه الصلاة والسلام - ينادي . . إليَّ عباد الله . . إليَّ عباد الله . . جاء العتاب القرآني مع المؤاخذة - غماً بغم - فيما نراه من قوله جل وعلا: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ . ولكن عناية الله هي الغالبة، فهؤلاء الذين بدر منهم بعض الخطأ: هم في ساحة العمل وميدان الجهاد في سبيل الله . . ولكم يغسل الدم من أوضار . ولكم يمسح الصدق من أوزار . . فليكن إمدادهم بالعطاء الرباني في أحرج الساعات وأشدها على المقاتلين: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ

﴿طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾. ونعمة النعاس في مثل هذه الساعات العصيبة لا يقدرها حق قدرها إلا من ذاق مثل الذي ذاق أولئك الأبرار.

وأنت تجد بديع صنع الله في هذا المنهج الرباني: من مزج رقيق العتاب ببليغ الدرس ونافعه، حيث استعداد النفوس وتطلع القلوب إلى ما يمكن أن يكون.. ما باعد عن القنوط، وسلك بأهل «أحد» سبيل الاستعلاء على المعوقات مجدداً.. وانظر بعد هذا إلى العفو والمغفرة والحلم.. بعد الكشف عن الخطأ لكيلا يعود إليه المسلمون مرة ثانية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ وكل الذي حصل لا يجوز أن يثلم مبدأ الشورى، ورسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - مدعو إلى أن يرفق بجنده - وهذا درس للقادة - ويعفو عنهم.. فالسلطة لا تكون حجازاً بين القائد وبين كمال الأخلاق في الدعوة ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

وعلى هذا الدرب المضيء بالفكر يتبعه العمل والعقيدة، يوطد لمستلزماتها حسن التمرس بالجهاد في كل ميدان من ميادين الجهاد.. تطلع علينا قاعدة أنه لا بد من العمل الدائب، واليقظة المستمرة.. كيما تبلغ الأمة أهدافها في أداء رسالتها في العالمين.. أما الاغترار بالنصر.. والاستسلام للدعة تحت عنوان القرب من الله، أو الصلة به، فذلك ما ينبغي أن يتجنبه المؤمنون.. لأن أحباء الله يسعدهم أن يكونوا عند الذي أوجب الله أن

يكونوا عنده وهم بذلك الأعلون المكرمون . . وإذا وقعت الغفوة أو مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون . . وسنة الله ماضية في مثل هذه القواعد لا تتخلف ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ .

وعلى جند الله المؤمنين أن يكونوا على تذكر أن سلعة الله غالية، وسلعة الله الجنة، ولابد لنيلها من الثمن جهاداً وصبراً على الشدائد . . وصدقاً في المواطن . . والكفار ينالهم في الحرب ما ينال المقاتل . . ولئن أصيب المؤمنون في أحد . . فقد أصيب الكفرة في «بدر»، ولكن شتان بين العاقبتين . والأيام دول ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ .

ولقد كان تأكيد القرآن واضحاً في وضع المسلمين على مكمن الضعف تجاه شائعة مقتل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ . . فلم لا يموتون على الذي قاتل دونه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ؟! مع أنهم كانوا يتمنون الموت في سبيل الله ـ وذلك ما تنبه إليه بعض الأنصار ـ ثم إن صلتهم بالإسلام يجب أن تكون صلة المبادئ والقيم . . لا تعلقاً بأشخاص . . فلقد جمعهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الحق وكان واجباً عليهم أن يحبوه أكثر مما يحبون

أنفسهم . . لما أنه عبد الله ورسوله، فإذا مات رسول الله أو قتل، فإن الذي أرسله وأوجب طاعته ومحبته حي لا يموت . . وعلى هذا فقد كان موضع المؤاخذة أن ينقلبوا على أعقابهم حين أذهلهم النبأ، وكان عليهم أن يقفوا الوقفة الصابرة المؤمنة، ينافحون عما نافح عنه، ويذودون عن الراية التي التفوا بقيادته حولها ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿ **وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾ . ومع السبب الخاص لهذه الآيات ـ كما أسلفت ـ لا أجدني بحاجة إلى مزيد من الكشف عن عموم لفظها، وأنها تضع المنطلق الثابت الذي لا يحيد عنه إلا من سفه نفسه مهما تطاول الزمن . . وتعددت ألوان الصراع بين الوثنية والتوحيد .

ترى هل تشرق شمس حياتنا مجدداً . . فنقف الوقفة التي يمليها صدق الرسالة، على خط يتجاوز الخط الزمني بحيث نتصل عقيدة وعملاً وتذكراً بكل الذي أكرمتنا به «أحد» من دروس وعبر . . ونستلهم المنهج الرباني فيما وجهت إليه آي الكتاب، وما رسمت من معالم . . وما أشعرت بندى الرحمة الإلهية؟؟ . . كيما ننعم ببوادر يقظة جديدة تضيء ظلمات الطريق . . وتجمع أمر هذه الأمة بعد شتات . . فتبصر من خلال قيمها . . وتتمرس بالحياة في ضوء مقاييس الإسلام؟؟ . . إننا لنرجو . . ونرجو . . وكلنا ثقة بفضل الله وعونه، وكريم تأييده . . متذكرين قوله تعالى فيما هو جماع ما حصل للمسلمين يوم أحد على كل ما قدموا من شهداء وما بذلوا

من تضحيات ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وفي أعقاب هذه الكلمات التي طال استعصاؤها على القلم: إني مذكِّر ببعض ما دعا به النبي - صلى الله عليه وسلم - يومذاك فيما رواه الإمام أحمد: [.. **اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا. اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين. اللهم توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين.**

اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك. واجعل عليهم رجزك وعذابك..]. وصدق ربنا مالك الملك إذ يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

الدعوة .. والذكرى والوفاء(*)

ترى . . أي شيء يتألق به الكون عندما تتفتح القلوب على ندى الخير . وأي شيء هذا الذي ينجاب من طريق العاملين . . عندما تثوب النفوس إلى رشدها . . وتعي أمر ربها . . وتستأنف الطريق .

وعلى النقيض من ذلك . . أي ظلام مطبق هذا الذي يلف الأمة حين تستحكم الغفلة . . ويستعلي الظلم ، ويضرب على الآذان الوقر عن كلمة الله . . أي نذير صارخ هذا الذي يلقي به العبث والتماوت القاتل في مواجهة التاريخ . . حين تذكر هذه الأمة فلا تتذكر . . ويدور الزمن دورته ليشدها إلى معالم الطريق فلا تستجيب؟!!

هذه أيام من أيام الله تعود إلى ربوعنا التي كاد أن يأكلها الجفاء . . فتحمل إلى دنيا الناس بكثير من الوضوح والتبيان ذكرى مولد يتيم آواه الله وأعده لحمل الرسالة . . ثم ابتعثه على فترة من الرسل شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . . فأدى الرسالة ، وبلغ الأمانة ، ونصح الأمة وهاجر من مكة إلى المدينة ، وجاهد في الله حق جهاده ، وظل على أمر مولاه ، حاملاً لواء الحق والخير . . متبعاً ما يوحى إليه . . مستقيماً على الطريقة التي بها أذن الله ، حتى أتاه اليقين . . ولكم نكون أوفياء لهذه الذكرى

(*) مجلة حضارة الإسلام : العدد الأول ، السنة السابعة عشرة ، ربيع الأول ١٣٩٦هـ ، آذار ١٩٧٦م .

إذا نحن جددنا العهد مع صاحبها ـ عليه الصلاة والسلام ـ . . أن نستأنف الطريق فلا تغرنا الأماني . . وأن نعيد سيرة الرعيل الأول صادقين، فلا نبخل على هذه الدعوة بشيء مستطاع .

إن رسولنا ـ عليه الصلاة والسلام ـ قام بأمر الدعوة بالكلمة والعمل . . وفتح لها مغاليق النفوس بالسلوك وحسن الأسوة . . ومكن لها في الأرض بالجهاد في سبيل الله . . ولم يقف عند هذا الحد . . فسيرته ـ عليه الصلاة والسلام ـ بين ظهراني الناس دعوة عملية واضحة المعالم مشرقة الآفاق . . بدءاً من عهده بالرسالة ـ وإن شئت من قبل ذلك ـ، ومروراً بحياة حافلة بالعمل والصبر والمصابرة وممارسة الحياة بشتى ألوانها الاجتماعية والسياسية، وانتهاءً بإرساء القواعد التي تكفل لهذه الأمة ـ أن لو التزمت بها وعملت بمقتضاها ـ سعادة الدنيا والآخرة وقيادة العالمين . . حيث تملك ما به تنقذ البشرية من وهدة لا يعلم آمادها إلا الله .

إن أمانة الكلمة في الحديث عن الذكرى تقتضينا أن نذكر بالوفاء الذي تومئ إليه الذكرى، ولهذا الذي لا مندوحة عن وعيه والتزامه على طريق الدعوة إلى الله . . كي نكون ـ كما أراد لنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ استمراراً للقافلة الخيرة التي تحمل عبء الدعوة ـ كما أسلفت ـ بكل شُعبها قولاً وعملاً وسلوكاً . بالبيان . . بالكلمة . . بحسن الأسوة عملاً بقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ . وإذا سرنا مع الجمهور القائلين بأن ﴿ **من** ﴾ هنا بيانية فمعنى

ذلك أن القيام بشأن الدعوة واجب على هذه الأمة بمجموعها وجوباً كفائياً إذا لم تقم به، كان كل فرد منها آثماً مقصراً في الاستجابة لكلمة الله. . كما أن فرض عين على الأمة أن يكون منها طائفة همُّها وهجيراها القيام بشؤون هذه الدعوة. . وعلى هذا فإن صدق الاحتفاء بذكرى مولد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إنما يكون بمتابعة الطريق. طريقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي عاش للدعوة وكان لها طول حياته التي وسعت الإنسانية كلها.

وما من شك أن عنوان الإضاءة في أي فترة من فترات تاريخنا: إنما كان ذلك الحرص على الدعوة وتبليغ رسالة هذه الأمة التي تتمثل في قول الله تعالى خطاباً لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. ذلك لأن الدعوة ـ كما تعطيه الآية ـ كما أنها وظيفة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على طريق المرسلين من قبله، فهي أيضاً وظيفة أولئك الذي يصدقون في انتسابهم إلى طريقه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، لذا كان الاهتمام بشأنها عنوان صدق الاتباع ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾. وختم الآية بالتنزيه وإعلان التوحيد ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ خط مؤشر إلى أن الأمر يبدأ من هنا. . نعم يبدأ من هنا!! من الإيمان بوحدانية الله وأن بيده الآجال والأرزاق، فلا تداخل المسلم ـ وهو يقوم بشأن الدعوة ـ قولاً، عملاً، كتابةً، إتقاناً للعمل بوصفه مسلماً، سلوكاً وأسوةً، حسن صلةٍ بالناس، وعياً لما يدور حوله، ممارسةً للحياة من خلال تصوره الإسلامي النقي. . لا تداخله أي لوثة من لوثات الوثنية في أمر الرزق أو الأجل؛ لأن كل ذلك بيد الله جلت قدرته، كما لا يصيبه الوهن في اتخاذ الأنداد، لأن العبودية لله القادر القاهر.

ولعل ما نشير إليه دائماً من سيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث تمثلت كل معالم الضياء الذي يوحي به، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ لعل ما تشير إليه يعطي سعة الساحة التي يمكن أن يكون ميدان الدعوة، فهي ليست مقتصرة على أولئك الذي يفقهون شيئاً من أحكام الإسلام، لكنها قدر مشترك في الجميع، كل بقدر ما يعلم وما يستطيع، وكم من طبيب، أو مهندس، أو مختص في أي علم من العلوم: يستطيع بالإيمان، والنصح للأمة، والإخلاص في العمل ـ بعد أن يكون على قبضة من المعرفة ـ أن يجلِّيَ في الدعوة، إلى الله، ويكون لدعوته الأثر البالغ أكثر من أي إنسان يتخذ هذا الأمر حرفة وكفى.

إن اللوعة التي كانت تخالط قلب الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ على أمته أن تكون دائماً على مورد السعادة: هي هي التي يجب أن تخالط قلوبنا اليوم في صدق الدعوة إلى هذا الإسلام الذي جفاه أبناؤه، وتنكبوا طريقه غفلة حيناً، وانهزاماً داخلياً حيناً آخر، وعمداً في كثير من الأحيان، والعياذ بالله.

ويلاحظ أنه في الوقت الذي ربط الله فيه خيرية هذه الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله: أنذرنا في حديثه عن أهل الكتاب أن كتمان ما أنزل الله مجلبة للّعن والطرد من رحمة الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾. فانظر أي شيء هذا، وقف عند كل كلمة من هذا النهج الرباني الذي لا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أوضح جوانبها.

من أجل هذا كانت كلمة عمر بن عبدالعزيز لواليه، الذي أبلغه نقص موارد بيت المال لكثرة الذين صاروا يدخلون في الإسلام: «إن الله أرسل محمداً هادياً ولم يرسله جابياً». إنها الكلمة التي اختصرت الموضوع الكبير، ووضعت الأمة على طريق الواجب، من خلال فهم الحاكم المسلم الصادق في انتمائه إلى هذه الأمة الخيرة.

والصدق في هذه الدعوة: هو الذي جعل من المحكوم إنساناً يصدع بالحق، ومن ولي الأمر خادماً للأمة يرحب بذلك، روت كتب التراجم أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب في كلام دار بينهما: «اتق الله». فأنكر عليه بعض الحاضرين الذي يرى عمر في عدله وحسن تأسيه بالرسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وقال له: أتقول لأمير المؤمنين «اتق الله»؟! وما كان من عمر العادل المنصف الحصيف الذكي إلا أن قال لذلك المعترض: «دعه فليقلها لي، نعم ما قال، لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نقبلها». أرأيت إلى هذه الخيرية؟؟ ثم أرأيت إلى هذا الخط النوراني الذي يربط بين عمر وبين الفرد العادي من أفراد الرعية، على أي مورد التقيا، وكيف كانت طبيعة الدعوة إلى الله وثقافة الإسلام الحقيقية قدراً مشتركاً بينهما؟!

وفي هذا الجانب من القول لا يخفى على ذي بصيرة أن ما يواجهه المسلمون من تحديات على الصعيد العالمي، وما نراه من إخفاق الحضارة الغربية في الإسعاد الحقيقي للإنسان فضلاً عن الإساءة البالغة لمن هم وراء الحدود بجانب الوجوب الذي ألمحنا إليه في أمر الدعوة، كل ذلك يعطي

مزيداً من تأكيد القيام بهذا العبء، كلٌ في ميدانه والثغر الذي أقامه الله عليه. . نقول ذلك والعين غير مغمضة عن النذر والعوائق والصوارف، لكن هنا. . في هذا الميدان من طلب مرضاة الله تعالى، يكون برهان الصدق في متابعة الطريق. . طريق القافلة التي قادها محمد بن عبدالله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، الذي كرم الله البشرية بمولده قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، وانبعثه على رأس الأربعين، فأصلح دورة التاريخ، ورسم للإنسانية معالم الحق، ومهد لخريطة جديدة للعالم تزينها سمات العقيدة، وتكريم الإنسان، ويصلح أمرها منهج الإسلام الرباني، هاجر على رأس ثلاثة عشر عاماً ـ وفي ربيع الأول أيضاً ـ إلى المدينة، وأقام الدليل على أن الحق لا بد له من القوة، وأن التكامل أمر أساسي في حياة الأمة. فكان المسجد ـ بمفهومه النير الأصيل ـ منطلق الحياة الإسلامية بأوسع حدودها ومثلها، وكانت المؤاخاة، وكانت الوثيقة، وكان الجهاد، وكانت الدعوة هي المحور لتلك الحياة الحافلة بالنشاط والحيوية والحركة على أساس قاعدة التوحيد والحكم بما أنزل الله. . وإذاً. . فالبرهان على صدق الانتماء اليوم: إنما يكون بتلك الأَوبة الصادقة إلى طريق تلك القافلة، دون تعلل بالمعاذير، ودون جنوح إلى العافية تحت وطأة المخترع من العناوين.

ولقد أصبح من مكرور القول أن كل ما ينتاب بعض النفوس من استثقال الكلام على النقلة إلى طريق تلك القافلة: إنما مرده خلل في داخل النفس أو خضوع لأفكار لم تنبت في محاضن الإسلام، ولم تحضَّر في تربته الأصيلة،

فكان الإعراض صورة عن هذه الذبذبة بين هنا وهناك، عنواناً على أن ما يقال أو يفعل ليس أمراً ذاتياً وإنما هو ترديد الببغاوات وصنيع من لا يعقل.

وفي خاتمة المطاف: أرجو ونحن في مفتتح هذا العام الجديد لمجلة حضارة الإسلام، وفي ظلال شهر ربيع الأول شهر مولد سيد العالمين ـ عليه الصلاة والسلام ـ. أن أكون مع الإخوة القراء على وعي كامل لمعنى القضية التي تضعنا الدعوة في مواجهتها. ومما يمكن للدعوة في النفوس ويفتح لها مغاليق القلوب: أن يكون مع العلم العمل، وأن يكون الداعية في سلوكه صورة عما يدعو إليه ذاكراً أن شعيباً ـ عليه السلام ـ قال: ﴿**وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾.

ثم أن نعي ـ وراء ذلك ـ دورنا نحن المسلمين على صعيد أنفسنا وأمتنا، بل والإنسانية جمعاء..

وصلى الله وسلم على صاحب الذكرى نبينا محمد كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون، الرسول الذي أنزل الله فيما أنزل عليه قوله جل وعلا: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بين الحقيقة والضياع والمواقع الثلاثة(*)

لقد كان جديراً أن يُميلَ إليه القلوب ـ كل القلوب ـ التي تحمل شيئاً من ندى الخير . . لقد كان جديراً أن يعبِّد بصدق دعوته . . وصبره على تبليغها . . ولوعته على الإنسان أن يهتدي . . كلَّ الطرائق التي يمكن أن توصل هذا الإنسان إلى الله فتهبه سعادة الدنيا والآخرة .

إنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . . إنه أبو القاسم . . رجل الإنسانية ومعلمها . . إنه الإنسان الذي وقف على بطاح مكة يدعو بالذي أوحى إليه فحول تاريخ العالمين من حال إلى حال . . لما أنه كان بعمله وصبره وراء كل كلمة تتحرك بها شفتاه . . ومع كل خطرة يختلج بها قلبه .

ولن تستطيع أن تدرك ذلك : إلا إذا كنت على حسن تصور في أن تضع سيرته في الموضع الذي وقفت فيه على عين الله في تاريخ الإنسان . . فتبصر أيَّ شيء كان عليه الناس قبل دعوته لا في جزيرة العرب وحدها ، بل في دنيا هذه الغبراء بأكملها . . ثم أي شيء أصبحت عليه بعد دعوته . .

أي حال كان عليها هذا الإنسان . . وكيف أصبح بعد أن أشرقت شمس الدعوة . فهي ثلاثة مواقع لابد من حسن تصورها بكثير من الإحاطة والعمق ، بعيداً عن السطحية التي قد تكون أقرب إلى طلب العافية ، والبعد عن تحمل التبعات .

(*) مجلة حضارة الإسلام : العدد الثاني ، السنة السابعة عشرة ، ربيع الآخر ١٣٩٦هـ ، نيسان ١٩٧٦م .

أولها: ما كان قبل البعثة، **ثانيها**: الأعوام الثلاثة والعشرون بعد البعثة **وثالثها**: ما آل إليه الأمر في حركة التاريخ وأبعاد الخريطة الجديدة على أكثر من قارة في الأرض.. ثم معالم حركة الإنسان: ما هو في ذاته؟ ما هي أبعاد طاقاته في أداء رسالته؟ ثم ما هي البواعث التي بدأت تدفعه إلى ميادين الحياة دفعاً أثمر ما أثمر للحضارة.. وأعطى ما أعطى للبشرية في مختلف العصور؟

وهذه الخطوط العامة كثر الحديث عنها قولاً وكتابة في هذه السنوات الأخيرة من هذا العصر.. والمطلوب اليوم أن توظف في طريق العمل، أن ينقدح الزناد فتحدث النقلة وتتفجر الطاقات.. ويتحول الحديث عن صاحب الرسالة ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى أن يكون نهجه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ في شتى فروع الهداية التي حملها، طريقة للتفكير ومنهجاً للعمل.. فالباحث يبحث من خلال هذه الطريقة.. والمفكر يفكر في ضوئها. فإذا غدت الممارسة العملية صورة صادقة لهذا الفكر المطبوع بطابع هذه الطريقة نكون قد سلكنا طريق الجادة.. سواء في أنفسنا وإنتاجنا.. أو في بناء الجيل المسلم الذي نريد له أن يكون موصول الحبال بالهدي النبوي لصاحب الرسالة ـ عليه الصلاة والسلام ـ. ومن هنا كان علينا أن نكون على سعة في الأفق.. وتفتح في البصيرة عندما نواجه قوله تعالى في شأن نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿**يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾. أي أقوال وأي أفعال وأي سيرة كانت أداة هذا الإخراج من الظلمات إلى النور، وأي أبعاد تلك التي يحددها مدلول الظلمات والنور في الآية؟

وأمر آخر في هذه العجالة ـ ونحن نلمح إلى أن يكون المنهج النبوي القاعدة النيرة لطريقنا في التفكير وتحديد المطلب الذي نريد . . ـ أمر آخر هو النظرة الواعية لقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾ . إن الساحة التي تحرك عليها من حضروا متنزل الوحي ، ومن كانوا هم الأداة المباشرة لتنفيذه تعطي بشكل لا يقبل اللبس ، أن مدلول الأسوة لديهم كان أشمل مما يمكن أن نتصوره اليوم . فالمنهج النبوي ، والسيرة المحمدية ، وما يكون من رسول الله بين ظهرانيهم ؛ كل أولئك صاغ أسلوب تفكيرهم ، وصاغ تصوراتهم ، وصاغ طريقة العمل وممارسة شؤونهم الخاصة والعامة . . حتى كان كل واحد منهم يمثل في تصوره وسلوكه دوحة النبوة العظيمة الكريمة وذلك قوله تعالى في شأن أصحابه عليه الصلاة والسلام : ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ** ﴾ . انظر إلى قوله : ﴿ **كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ** ﴾ إن كل واحدة من هذه الفسائل تمثل الشجرة الأم ولسوف تكون بسقيا الإسلام مصدر نماء وخير على طريقة تلك الشجرة الكبيرة المعطاء .

وإذاً فعندما ندعو إلى النقلة الحقيقية التي يتحول معها الكلام إلى طريقة في التفكير ، ومنهج للعمل يصدر عن تلك الطريقة ، وتحدده أبعادها ومنطلقاتها : لا بد من تحديد المصطلحات في أذهاننا تحديداً يباعد عن اللبس

والاشتباه. من أجل هذا كان لونا من ألوان الخطأ الذي تتسع بعده الشقة هو قصر الأسوة على صورة من صور السلوك والتعبد أو حصرها في المجال الأخلاقي فحسب.. مع أن الكلمة ذات أبعاد أوسع وأشمل حين ترتبط بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بوصفه رسولاً يبلغ عن الله، وبوصفه إماماً يحكم الناس بشريعة الله، وقاضياً يقضي بينهم بالحق.. وقائداً يقودهم في ميادين الحرب والسلم.. ثم بوصفه إنساناً يمارس كل ألوان الحياة في البيت والمسجد والسوق وكل ساحات التعليم والتزكية والعمل، فلم يكن العطاء بالنسبة إليه مقتصراً على شيء دون شيء، فيما خلا تلك الأمور التي متعلقها جبلة الإنسان بوصفه إنساناً دونما علاقة بالرسالة.. وفيما خلا تلك الأمور التي تثبت بالدليل المقبول أنها من خصوصياته ـ عليه الصلاة والسلام ـ..

وإذا رجعنا البصر في كل الميادين التي خاضها.. وكانت وسيلتنا عقلاً يدرك وقلباً يعي وبصيرة تتفتح للخير: فإننا ندرك كيف كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ الغيث الهتون الذي أمرعت الأرض به واهتزت وربت بعد جفوة طال أمدها، وأصبحت مصدراً بعد أن كانت جدباء هامدة.

واليوم ونحن نضرب في أرض يتعاون علينا فيها جهل المسلمين بإسلامهم، وتوجههم وجهة غير وجهة نبيهم والسلف الصالح من أهل سنته ما يطرق أبوابنا من مطارق الفتنة والتحديات من هنا وهناك.. اليوم والمسلمون على هذه الحال.. يتضح لكل من يحمل بين جنبيه شيئاً من اللوعة لهذه الدعوة وطريق صاحبها ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن المنجاة من

الهلكة، بل استئناف المركز القيادي في العالمين إنما يكون بتلك النقلة الواعية إلى الذي دعا إليه محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، دون ما إخلال بالإفادة من كل معطيات العلم، وما قَطع العقل البشري من مراحل. فلتكن طريقة التفكير، وأسلوب العمل، ووسائل التنفيذ والتطبيق بنية كاملة في ظل المنهج النبوي الكريم كيما يتحقق لنا صدق التأسي في فترة حالكة طال فيها على أمتنا الليل، وتداعى عليها الأمم. وأثبتت الوقائع أن الفكر يسبق العمل وأن سلامة التطبيق رهن سلامة التصور.

ومن أكرم ما أنعم الله به على هذه الأمة: ما مهد لها من الفكر القائم على عقيدة التوحيد، وبما جعل من سيرة نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأصحابه ومن تبعهم بإحسان صورة صادقة عن المبادئ تتحول إلى عمل، وعن العقيدة تقود مسيرة الإنسان، فإذا شاءت أمتنا الحقيقة بطريقتها ومنهجها وأبعادها فتلكم هي الحقيقة بما يؤيدها من الحجة والواقع الإسلامي، وإلا فذلك هو الضياع بظلامه وما يسوق إلى العبودية للآخرين. . ولله الأمر من قبل ومن بعد. وصلى الله على من ائتمنه الله على التبليغ والتزكية وتعليم الكتاب والحكة، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلَّم تسليماً كثيراً.